الجوارى المثقفات

تعليمهن

الجوارى اللواتى اضطرب بهن المجتمع الإسلامى على أنواع : منهن التى سبيت من بلاد الأعداء ، ونقلت إلى ديار الإسلام وهى على شىء من العمر ، فلا سبيل إلى تعليمها العربية ، أو تخريجها فى الفنون والآداب ، أو تهذيبها بأخلاق البلاط والأسر النبيلة فهذه حظها من الرعاية قليل ، وشأنها فى المنزل الذى تحل فيه هين . ينظر إلى ما فى قسمات وجهها من جمال ، ويختلف ثمنها باختلاف ما تبقى فى مفاصلها من فتوة ، وفى وجهها من حسن . فتحول إلى أعمال المنزل أو تحظى برضا مولاها . وقد كثر عدد السنديات والهنديات والروميات والأرمنيات والحبشيات اللواتى لا يبن بالعربية ، وإذا ابن بما علق بأذهانهن من مفردات وتعابير اعتاصت المخارج عليهن ، فأسأن التعبير ، كما أسأن اللفظ . وكثيراً ما كانت أصداء اللغات الغريبة تتجاوب فى قصور بغداد وقرطبة وأشبيلية ، وتقوم الجوارى العالمات بدور الترجمة .

ومنهن اللواتي نقلن إلى ديار الإسلام وهن صغيرات السن قابلات للتعلم والحفظ . فهؤلاء شأنهن شأن المولدات اللواتي ينحدرن من الرقيق . ينشأن نشأة عربية خالصة ، ويحذقن أساليب التعبير ، ويتخلقن بعادات المكيات والبصريات والمدنيات والكوفيات والقرطبيات والدمشقيات . وتلين ألسنتهن في تأدية ما يردنه من المعاني والأغراض ، وهذان النوعان هما أحرى الأنواع بالدراسة لعظم الشأن الذي انتهين إليه ، وللمهمة العظيمة التي اضطلعن بها . وللأدب الرفيع الذي أنتجنه ، وللغناء البديع الذي برعن فيه .

حرص العرب على هؤلاء حرصاً شديداً ، وفطن أصحابهن من قيانين ورجال سيف وأدب وعمل إلى الكنوز التي في حوزتهم . وإلى أنهم بشيء من العناية يحولونهن إلى ما يشاؤون من فنانات بارعات ، وشواعر موفقات . وكثيراً ما كان الراغب في مثلهن يعهد إلى القيانين البارعين في التفتيش في المدن الإسلامية أو سواها على فتيات تتوافر فيهن الحداثة والاستعداد لوعي العلم والجمال الرائع . ومما لا شك فيه أن الملاحة كانت شرطاً أول وميزة فضلى . يحدد الطالب للقيان الميزات التي يريدها ، فينصرف هذا إلى مهمته محاولا جهده إرضاء ذوق الزبون . وكثيراً ما يغالي المشتري في شروطه ، ويسرف في المغالاة

بحيث يستدعى الهزء من صاحبه أو سامعه . من ذلك أن أحدهم قال لدلال : اطلب لى جارية حصاناً عند جارها ، ماجنة عند زوجها ، أدبها الغنى . وذلها الفقر . لا ضرعة صغيرة ولا عجوزاً كبيرة ، قد عاشت فى نعمة . وأدركتها حاجة ، لها عقل وافر ، وخلق طاهر ، وجمال ظاهر . سوداء المقلتين ، كريمة المحتد ، رخيمة المنطق ، ريحها أرج . ووجهها بهج . ثم مضى فى وصف خصرها وطولها وقصرها ، وما تبقى من خريطة جسمها . حتى برم به الدلال فقال : استفتح أبواب الجنان فإنك سوف تراها[١] .

الأديبات الشواعر

إذا تم فى الجارية الشرط الأول ، أى اكتملت محاسنها ، فلم يشنها عيب ، أو يحط من مقامها نقص يتحول صاحبها الخليفة أو الأمير أو السرى إلى صقل ذهنها ، وتطويع لسانها ، وتليين حركاتها ، وإخراج اللآلئ من أصدافها . وكان الخلفاء بنوع خاص يعهدون إلى علماء اللغة ، بل إلى أئمتهم فى تثقيف قيانهم ، ليأخذن عنهم أسرار اللسان ، وما لحق بها من علوم كلامية تنفعهن فى حياتهن المقبلة . وينصب الجهد بنوع

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٧١ — ١٧٢ .

خاص على الجوارى اللواتى يعددن للتردد على المجالس حيث تعقد حلقات المناشدة . فيشاركن فيها عن معرفة وذوق . فلا عجب إذا رأينا الخليفة هارون الرشيد مثلا يبعث فى طلب الأصمعى ليعرض عليه جاريتين أهديتا إليه ، فسبر علمهما فوجد إحداهما لا تحتاج إلى مزيد علم : كاملة الأدب ، فصيحة اللسان ، تروى الأشعار والأخبار ، وتحفظ القرآن والحديث ، وتجيد نظم الشعر(١) .

كان أصحاب هؤلاء الجوارى الجميلات المثقفات يفخرون بهن ، كما يفخر كل إنسان بما يملك من ثمين المتاع ؛ أو بما يتفرد به من النفائس والطرف . ويأذنون لهن حيناً بالظهور على الأصدقاء ؛ أو يضربون بينهن وبين أصدقائهم حجباً ، فيجلسن وراءها ويغنين ؛ أو يختلطن بهم ، ويتجاذبن معهم الحديث ، فيتناشدون الشعر ، ويتسامرون بالقصص والأخبار .

عديدات هن الجوارى اللواتى كن يجارين الشعراء ارتجالا ، ولا سيما فى مطارح المجون ، يقارعنهم مقارعة الند للند ، ويكتب لهن النصر ، منهن عنان جارية الناطفى التى عاصرت الشاعر أبا نواس ، وكان لها به صلات وثيقة ، يتردد مع رفاقه المجان على منزل صاحبها ، فيجلسون إليها ويتناشدون ، فتشاركهم فى

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٩٣ .

النظم وتبذهم أحياناً . غير أن هذه المحاورات الشعرية كانت تغلو في المجون والإقذاع لما فيها من الإباحية والإفصاح دون التلميح . وفي كتاب المحاسن والأضداد مجلس من تلك المجالس تجوز قراءته : ولا يحلو نقله[١]. وأغرب ما في أمر عنان تلك المشادة الشعرية التي عنفت بينها وبين شاعرها في حضرة وجوه بغداد ، فشاء أن يؤلمها ويخجلها ، فردت عليه رداً جارحاً تحدث به البغداديون وتناقلوه في مجالسهم حتى بلغ أسماع الخليفة فاستظرفه ، فدعا بها وبشاعرها ، واستعادهما ما جرى ، فأعجب بسرعة بداهتها ، وعنف جوابها ، فطلبها من مولاها ، فاستام فيها مالا جزيلا فردها .

لم تكن الجارية التي تسحر اللب بحسنها وعلمها نادرة في ذلك الحين . فكثيرات كن كتلك التي أقبلت على علي بن الجهم في مجلس أحد أصدقائه ، فإذا بها كالبدر ليلة التمام ، بلون كأنه الدر في البياض ، مع احمرار في خدين كشقائق النعمان . فهمس صديقه في أذنه مداعباً عند طلوعها عليهما : « يا أبا الحسن : هذه الجنة التي كنتم توعدون » . فإذا بشفتي الجارية الفاتنتين تنفرجان عن نطق ساحر ، فترد عليهما شعراً ، ويجيبانها على قولها غزلا ومدحاً . وتقبل عليهما تحدثهما ، فإذا عقل

(١) المحاسن والأضداد ص ١٤٨ — ١٤٩

كامل ، وجمال فاضل . ثم اندفعت فغنت بنغمة مكية حتى طار عقلاهما[١].

تخريجهن فى الغناء

كان الغناء شرطاً أساسياً من شروط الحسن . يشترى المغنون الجوارى بأثمان زهيدة فيعلمونهن فنهم ، ثم يبيعونهن بأفحشها ، فيربحون ربحاً كثيراً[٢]. وكان القيانون والمسؤولون عنهن يرسلون بهن إلى منازل المغنين ليأخذن عنهم أصول الأصوات . وكثيرات منهن يتجشمن العقبات فى الوصول إلى الأستاذ الماهر . وكان الخلفاء وأصحاب الشأن آنذاك إذا استمعوا إلى لحن فأعجبوا به أحبوا إلقاءه على جارية من جواريهم لترده عليهم عند ما يشاؤون . ولقد غنى إبرهيم بن المهدى الأمين أغنية أعجبته ، فاستحسن اللحن ، فأمر بإحضار صبية له . فأخرجت إلى إبرهيم كأنها لؤلؤة ، وفى يدها عود . فطلب منه أن يلقى إليها الصوت ففعل . وأعاده مراراً ، والأمين يشرب ؛ حتى ظن أنها قد أخذته . فأمرها إبرهيم أن تغنيه ، فغنته ، فإذا هو قد استوى لها إلا فى موضع كان صعباً جداً ، فجهد جهده أن

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٥٥ .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٢٥١ .

تتقنه طلباً لمسرة الخليفة ، فلم تتوصل إلى أخذه بتة . ورأى الأمين عناءه فى أمرها وتعذره عليها ، فأقبل وقد سكر وقال : نفيت من الرشيد ، وكل أمة لى حرة ، وعلى عهد الله لئن لم تأخذيه فى المرة الثالثة لآمرن بإلقائك فى دجلة . والطبيعة آنذاك فى الربيع ، ودجلة طافحة ، وبينها وبين مجلس الأمين نحو ذراعين . فتأمل إبرهيم القصة . فإذا بالخليفة قد طفح سكراً ، والجارية لا بد مخطئة فى الإخراج . فلم يشأ أن يشترك بدمها ، فعدل عما كان يغنيه عليه ، وترك ما كان يقوله ، وغناه كما كانت هى تخرجه ، وجعل يردده حتى انقضت ثلاث مرات ، فغنته على ما كان وقع لها ، ورده معها ، فطابت نفس الأمين وسكن ، وأمر له بثلاثين ألف درهم(١)

أثر الغناء

لا شك أن فتيان العرب كانو يتحسسون الغناء ، ويطربون له ، حتى تهتز جميع مشاعرهم ، والشيوخ يماثلونهم فى تذوقهم هذا ، ويطمئنون إلى الوجه الصبيح ، والصوت الجميل . ويسرفون فى الإصغاء إلى غناء جواريهم اللواتى يصطحبنهم فى سفنهم النهرية على دجلة والفرات . ينسابون على الماء ، والنهر طفاح ، والضفتان معشبتان مزهرتان ، ويغردن لهم الجديد من الأصوات ،

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٢٧ — ١٢٨ .

والقديم من المعانى ، فيطربون ما شاء لهم إحساسهم ، ويشقون الجيوب ، ويخرج الشيوخ عن وقار السن ، وقد دب فى أعصابهم أثر النغم دبيب الخمرة. فيأتون بالغريب من الأعمال، فعل الشيخ الذى اصطحب شباناً فى سفينة على الفرات ، ومعهم مغنية ، فلما صاروا فى بعض الطريق قالوا للشيخ : معنا جارية لبعضنا ، وهى مغنية ، فأحببنا أن نسمع غناءها ، فهبناك توقيراً ، فإن أذنت لنا فعلنا . قال : أنا أصعد إلى طلل السفينة — غطاء تغشى به كالسقف للبيت — فاصنعوا أنتم ما شئتم . فصعد ، وأخذت الجارية عودها وغنت :

حتى إذا الصبح بدا ضوءه وغابت الجوزاء والمرزم
أقبلت والوطء خفى كما ينساب من مكمنه الأرقم

فطرب الشيخ وصاح . ثم رمى بنفسه بثيابه فى النهر ، وجعل يغوص فيه، ويطفو ويقول : أنا الأرقم . أنا الأرقم ،فألقوا أنفسهم خلفه ، فبعد عناء استخرجوه وقالوا له : يا شيخ ما حمل على ما صنعت ؟ قال : إليكم عنى . فإنى والله أعرف من معانى الشعر ما لا تعرفون . فسئل عما أصابه فقال : دب شىء من قدمى إلى رأسى كدبيب النحل ، ونزل من رأسى مثله . فلما وردا على قلبى لم أعقل ما عملت[1]. واشترى يزيد بن عبد الملك

(١) الأغانى ج ٩ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

الجاريتين المشهورتين بحسن غنائهما وجمالها : حبابة وسلامة ، وأدخل الرجال عليهما للسماع . وكان يصغى إليهما ، فإذا طرب شق برده ، ثم قال : أطير ؟ فتقول حبابة أو رفيقتها لا تطر . فإن بنا إليك حاجة(١). وكان إبرهيم الموصلى يلازم فى شبابه قطربل وبارى وبنى وسواها من متنزهات الفتيان ؛ واتخذ له فى إحداها خماراً لطيفاً يخصه بالشراب الجيد ، ويخبؤه له . فجاءه يوماً فلقيه بقوله : يا أبا إسحق : عندى شيء من بابتك . وكان إبرهيم قد عمل لحنه المعروف :

اشرب الراح وكن فى شربك الراح وقورا

فدخل بيته ، وبزل دفه ، وجعل يرجع الصوت ، فبهت ينظر إليه ، والنبيذ يجرى حتى امتلأ الإناء وفاض على الأرض(٢) .

لم يقتصر أثر الغناء على إثارة النفوس ، وتصابى الشيوخ ، والمبالغة فى الإنفاق لشراء المغنيات الجميلات الصوت ، وإنما تعدى كل ذلك إلى التأثير فى الحياة الاجتماعية بكاملها ، وإلى إيجاد طبقة من الناس مكرمة محترمة يصغر عندها الكبير ، ويلطف بين يديها العنيف ، وحتى استبد الغناء بالأذواق ،

(١) رسالة القيان ص ٦٦ .

(٢) الأغانى ج ٥ ص ١٩٧ .

وأصبح للمغنى والمغنية مقام رئيسى فى تكييف الأزياء ، وطبعها بطابع خاص ، وأصبحت الأصوات التى تردد فى مجالس الطرب أو فى حدائق النزهات ، وفى أزقة المدن ، تقوم أحياناً مقام الصحيفة السيارة فى الدعاوة لأمر من الأمور ، أو فى نقد نقيصة من النقائص . ومن غرائب المغنين أمر التاجر الكوفى الذى قدم المدينة بخمر تغطى بها النساء رؤوسهن ، فباعها كلها وبقيت السود فلم تنفق . وكان صديقاً للدارمى الشاعر المغنى ؛ فشكا إليه حاله ، وكان قد نسك ، وترك الغناء ، والشعر . فطيب خاطره وقال له : لا تهتم بذلك ، سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ، ثم قال :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد

وغنى فيه ، وتداوله مشاهير المغنين ، وشاع على الألسنة فى كل مكان ، فقال الناس : قد فتك الدارمى ورجع عن نسكه . فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود ، حتى نفد ما كان مع التاجر منها ، فلما علم الدارمى بذلك ، رجع إلى نسكه ، ولزم المسجد[١] .

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٤٥ — ٤٦ .

سلامة وعامل المدينة

وما حدث لسلامة القس أبلغ مثال على أثر الغناء فى النفوس ، وعلى سلطان المغنيات فى قلوب الرجال ولا سيما الرسميين منهم . فقد ولدت سلامة فى المدينة ، ونشأت فيها ، وأخذت الغناء عن مشاهير هذا الفن ، وعرفت بسلامة القس لأن رجلا من قراء أهل مكة يلقب بالقس لعبادته وتقشفه ، شغف بها فغلب عليها لقبه . وكان مولاها يدخل عليها الشعراء ، فينشدونها وتنشدهم وتغنى فيهم ما يشاؤون .

كانت الجوارى ، ومنهن المغنيات ، كثيرات العدد فى المدينة ، وقد هويهن الناس ، بعد أن وجدوا عندهن ما لم يعثروا عليه من الفتنة عند الحرائر، فأفسدن الأزواج على الزوجات وسلبن القلوب ، حتى ضجت منهن المدنيات وأصحاب الدين ، فسعوا فى إخراج هؤلاء القيان منها ، ليعيدوا الاطمئنان إلى النفوس، ولكن أصحاب الأمر كانوا يتصامون عن سماع الشكوى، ويغضون الطرف عما يحدث فى عملهم . حتى ولى المدينة عامل متزمت ، يأبى على الناس إلا أن يحيوا كما يريد المحافظون ، فوجد عنده الشاكون أذنا صاغية ، فطلبوا منه أن يضع حداً للفساد ، وأن يطهر المدينة من الغناء ، وما يلحق به من المجون ،

فسير المنادين ـ الجريدة الرسمية آنذاك ـ فى الطرق ، يأمر المدنيين بإخراج المغنين والمغنيات ، وأجل القوم ثلاثة أيام لتنفيذ هذا القرار . وكان ابن أبى عتيق غائباً ، وهو من أهل الفضل والعفاف والصلاح . فلما كان آخر ليلة من الأجل المضروب قدم المدينة ، فذهب من توه إلى منزل سلامة ، فأخبرته الأمر ، وبما تخشاه من تهديد العامل الجديد . فانصرف من عندها واستأذن عليه ، ودخل فحياه ، ومدحه على إخراج أهل الغناء والمجون وقال : ما رأيك ، أمتع الله بك ، فى امرأة كانت هذه صناعتها ، وكانت تكره على ذلك ، ثم تركته ، وأقبلت على الصلاة والصيام والخير ، وأبت أن تغادر مثوى الرسول . قال : أدعها . قال : اسمعها وأصغ إلى دعائها ، فإن رأيت أن مثلها ينبغى أن يترك تركتها . فرضى العامل باقتراحه ، وجاءه بها وقال لها : اجعلى معك مسبحة وتخشعى ، ففعلت . فلما دخلت على العامل حدثته ، فإذا هى من أعلم الناس بالناس ، فأعجب بها . وحدثته عن آبائه وأمورهم ففكه لذلك . فقال لها ابن أبى عتيق : اقرئى للأمير . فقرأت له . فقال لها : احدى له . ففعلت . فكثر تعجبه . فقال : كيف لو سمعتها فى صناعتها . فلم يزل ينزله شيئاً فشيئاً حتى أمرها بالغناء . فقال لها ابن أبى عتيق : غنى ، فغنت :

سددن خصاص الخَم لما دخلنه
بكل لبــان واضـــح وجبين

فقام الأمير من مجلسه فقعد بين يديها، ثم قال : لا والله، لا والله ! ما مثل هذه تخرج. فقال ابن أبى عتيق : لا يدعك الناس، فهم يقولون : أقر سلامة وأخرج غيرها. فقال : دعوهم جميعاً. فتركوا على حالتهم.

وكان يزيد بن عبد الملك معجباً بها، فلما ولى الخلافة اشتراها بعشرين ألف دينار. وعند ما خرجت من ملك أهلها شيعها الناس إلى ظاهر المدينة. واجتمعوا حولها عند انفصالها عنهم، فأخذت عودها وودعتهم بغناء طريف، ورددت صوتها إلى أن انصرفت، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها[1].

الأخذ عن النوابغ

ترتفع أثمان الجوارى إذا أخذن الغناء عن مشاهير الفنانين. لذلك حرصن كل الحرص على أن تكون أجازتهن ممن ذاع اسمه، واتفق الناس على تقديمه وتفضيله وترديد أصواته. كان هؤلاء المغنون يؤلفون مدرسة واسعة الانتشار، عظيمة الشأن من حيث عدد المترددين عليها والمستقين منها، حتى إذا أتقنت

(١) الأغاني ج ٨ ص ٣٢٤ — ٣٥١.

القيان الفن ، ونضج حسنهن ، وأقبل سراة القوم على ابتياعهن تفرقن فى الخلافة الإسلامية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالا ، وضرب الزمان والمكان بينهن وبين معلميهن أكثف الحجب ، وانقطعت صلتهن بهم أوكادت ، غير أنهن يحاولن حيث ينزلن أن يؤلفن حلقة تقوم بالدعوة لفن المعلم ، وتنشر أصواته .

ولقد كانت هؤلاء المغنيات يقمن فى الواقع بدور أسطوانات الحاكى المعاصرة . تسجل عليها ألحان المعلم النابغ ، وتنشر فى جميع الأصقاع . فإذا أغرم أمير من الأمراء ، أو عامل من العمال ، أو قائد من القواد بمغن مشهور ، صعب المنال ، أثير فى البلاط ، لا يقوى على تقريبه ، كان يعمد إلى شراء بعض من تخرجن عليه من الجوارى ، فينقلن إليه ما يرغب فيه من أصوات مطربة . غير أننا نسىء المقابلة إذا زعمنا أن الجارية المغنية التى عاشت عهد ذاك لم تكن إلا مجرد أسطوانة من جماد ، لا حياة فيها ولا فتنة ، تبرى بعد قليل من الدورات ، فيهملها صاحبها فى زاوية البيت ، لأن الأسطوانة القديمة كانت تمتاز عن المعاصرة بارتفاع ثمنها حتى ينقد فيها الشارى آلاف الدنانير ، وتمتاز بما فيها من حياة نابضة ، ودماء فائرة ، ونظرات فاتكة ، ورقصات بارعة ، وبما تشيعه عيناها فى ألحانها من فتنة عارمة . وكانت تقوم أحياناً لدى صاحبها مقام المعلم

المثقف فيأتى لها بالغريرات الحديثات ، فيأخذن عنها أصول فنها، حتى إذا حذقن شيئاً من هذه الأصول باع بعضاً منهن ؛ فاستعاض بأثمانهن قسما مما دفعه مقابل الأولى .

ومما لا شك فيه أن صاحبها كان يسهر عليها سهرة على أعز ما لديه ، فيهيئ لها الجو الملائم من حيث المناخ والطعام واللباس ، ويغلو فى مرضاتها ، والكشف على صحتها ، فلا يتأخر فى استدعاء أشهر الأطباء لمداواتها إذا نزل بها داء ، محافظة على كنزه الثمين ، لأن خسارة مثل هذه الجوارى تعد كارثة قاصمـــة .

تلميذة معبد

كان معبد قد علم جارية من جوارى الحجاز تدعى ظبية ، وعنى بتخريجها ، فاشتراها رجل من أهل العراق ، فانصرف بها إلى البصرة ، وباعها هناك، فصارت فى ملك رجل من أهل الأهواز. وأعجب بها هذا ، وذهبت به كل مذهب حتى غلبت عليه . ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهة من الزمن ، وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها . فكان لمحبته إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد ومستقره ،ويظهر التعصب له والميل إليه ، والتقديم لغنائه على سائر أغانى أهل عصره ، إلى أن عرف ذلك

منه . وبلغ معبداً خبره ، فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل قد خرج عنها فى ذلك اليوم إلى الأهواز ، بعد أن اكترى سفينة له ولجواريه . وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز ، فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه . فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه فى مؤخر السفينة ، ففعل . فلما صاروا فى فم نهر الأبلة — بلدة على شاطئ دجلة البصرة ، فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة — تغدوا وشربوا ، وأمر جواريه فغنين ، ومعبد ساكت ، وهو فى ثياب السفر ، وعليه فرو ، وخفان غليظان ، وزى جاف من زى أهل الحجاز ، إلى أن غنت إحدى الجوارى فلم تجد أداء ما غنته ، فصاح بها معبد : يا جارية . إن غناءك هذا ليس بمستقيم . فقال له مولاها وقد غضب : وأنت ما يدريك الغناء ما هو ؟ لم لا تمسك أو تلزم شأنك ؟ فأمسك . ثم غنت أصواتاً من غناء غيره ، ولكنه لم يصمت ، بل أخذ على جميع الجوارى أداءهن الأنغام حتى ضجر منه المولى ، وكاد ينزله من السفينة . فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجوارى سكتة اندفع يغنى الصوت الأول حتى فرغ منه . فصاحت الجوارى : أحسنت والله يا رجل أعده ، فقال : لا والله ، ولا كرامة . ثم غنى الثانى ، فقلن لسيدهن : ويحك . هذا والله

أحسن الناس غناء ، فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة ؛ لعلنا نأخذه عنه ، فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً . فقال : قد سمعتن سوء رده عليكن ، وقد أسلفنا الإساءة ، فاصبرن حتى نداريه . ثم غنى الثالث ، فزلزل عليهم الأرض . فوثب الرجل إليه ، وقبل رأسه وقال : يا سيدى أخطأنا عليك ، ولم نعرف موضعك . وأنا أعتذر إليك مما جرى ، وأسألك أن تنزل إلى وتختلط بى . وعرف كل صاحبه ، ووعده معبد أن لا يقصر فى تعليم جواريه ، وأن يجعل له فى كل واحدة منهن خلفاً من الماضية . فأكب الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونها(١) .

كثيراً ما كان المشاهير من المغنين يصادفون فى الرحلات التى يقومون بها جماعات من الجوارى اللواتى تخرجن على أيديهم ، وقد بسم لهن الزمن ، وحظين لدى مواليهن ، ونعمن بالعيش الرفيه ، فيحسن وفادتهم وتكريمهم ، كما حدث لإبرهيم الموصلى عند ما دخل الرى — مدينة مشهورة بالفواكه والمتنزهات ، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً ، وتزوج إبرهيم منها — فألف فتياناً من أهل النعم بها — وهم لا يعرفون فضله ، ولا يفطنون إلى إجادته الغناء . وطال عليه العهد ، وهو على تلك الحال إلى أن دعاه أحدهم ليلة إلى منزله ، وكان عنده

(١) الأغانى ج ١ ص ٤٨ — ٥١ .

جارية . قد لها ستارة وغنت خلفها . فرآها صالحة الأداء ، كثيرة الرواية ، فأظهر ذلك فيه الشوق إلى الغناء ، وإلى مرابعه فى العراق ، فدعا بعود واندفع يغنى صوته المعروف :

أنا بالرى مقيم . . .

وكان قد نظم هذا الشعر ، وصنع هذا اللحن قديماً بالرى ؛ فخرجت الجارية من وراء الستارة مبادرة إليه ، وأكبت على رأسه وقالت : أستاذى والله . فقال لها مولاها : أى أستاذيك هذا ؟ قالت إبرهيم الموصلى . فإذا هى إحدى الجوارى اللواتى أخذن عنه ، وطال العهد بها . فأكرمه مولاها ، وبره . وخلع عليه(١).

(١) الأغانى ج ٥ ص ٨٨